السيد رفاعة رافع الطهطاوي جبل من الثقافة والمعرفة لم يتكرر في عصر النهضة الحديثة. إنه فرد أصلح أمة. ونبه أجيالا. وأحدث تبدلا واسعا في الساحة الأدبية والفكرية والعلمية. ذهب إداريًا. وأصبح طالب علم نهم الفكر. متوقد الفهم.

وفي فرنسا وجد كثرة في العلوم والفنون والآداب التي لم يدرسها في الأزهر الشريف. وكان يظن أنه درس علوم عصره كلها فأحس بحاجته إلى هذه المعارف الجديدة. وضرورة نقلها إلى أمته ترجمة وتعريبا. إنه وجد اتساعا كبيرا في المعارف التي قدمت الغرب وطورت حياته. فعرَب ما رآه جديرا بتقدم وطنه. واحتك بالعلماء وساجلهم ليسبر غور الحضارة. ويتعرف على جذور الفكر الغربي وأسباب تطوره الحضاري وازدهاره. لأن في نقل علوم الغرب خير وسيلة لرفع المستوى العلمي والفكري لبلاده ليفتح الأذهان وينمي المدارك بنشر علوم الغرب بين أبناء وطنه.

رفاعة رافع الطهطاوى والتعريب الأدبي

أ.د. يوسف عزالدين- العراق

واستمر مواصلاً التعريب مع طلابه عندما أسس مدرسة الألسن، واختار لها خمسين من الطلاب الذين يحسنون العربية واللغة الأجنبية، ووضع في منهجها دراسة التركية والفارسية إضافة إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، ورأى فيها نبعًا ثرًا، ومركزًا مهمًّا للتعريب، وفضلها على إرسال البعوث إلى الغرب. وأضاف علومًا تساعد الطالب على اتساع فكره، واطلاعه على العلوم المفيدة كالتاريخ والجغرافية والحساب، وعندما يجد الطلاب صعوبة في الجمل أو وضع مصطلح كان يسعفهم بالنصح، وإذا ما انتهى المعرب من مادة كانت تعرض على مراجع ليطلع على دقة التعريب وأصالة اللغة العربية.

إنه إنسان صابر سبع عشرة سنة دون كلل أو ملل في هذه المهمة ولم يتوقف حتى عندما نفاه عباس إلى السودان فترجم تليماك لفانلون برغم مصاعب الإقامة والبعد عن الأهل والشعور بالإحباط من هذا النفي فقال:

على عدد التواتر معرباتي
تفي بفنون سلم أو جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل
ومنتسكو يقر بلا تمادي

وقد فارقت أطفالاً ضعافًا
بطهطا دون عودي واعتيادي

ولما توفي عباس وجاء سعيد عاد إلى مصر، وعاد إلى مكانته الأولى، وزادت مساحة نفوذه وزاد نشاطه، فقد أوكلت إليه أعمال إدارية متعددة. ومن أعماله المهمة ترجمة القانون الفرنسي الأساسي (كود نابليون) ووضع المصطلحات القانونية معتمدًا على الشريعة الإسلامية وأحكامها.

تعليم البنات:

في الوقت الذي يصدر أحد العلماء في قطر عربي فتوى: (الإصابة في منع النساء من الكتابة) نرى الطهطاوي يبذل جهودا كبيرة يدعو فيها إلى تعليم المرأة لإيمانه بحقها في المساواة مع الرجل، فقد قال في (المرشد الأمين للبنات والبنين) بضرورة تعليم البنات، لأن التعليم (يزيدهن أدبا وعقلا، ويجعلهن للمعارف أهلا، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن).

ويبدو أن زوجة إسماعيل تأثرت به فأسست أول مدرسة للبنات سنة١٨٧٣م، فأثمرت البذرة التي بذرها رفاعة في مصر، ومن ثم في الشرق العربي، وبالرغم من اهتمام محمد علي باشا بالعلوم التي تخدم الجيش فقد عرب الطهطاوي بعض الكتب الأدبية، وترجم قصيدة لفولتير في رثاء لويس الرابع عشر.

ويبدو لي أن تليماك كان لها أهمية كبيرة في هذه المرحلة، فقد نقلت إلى التركية التي قالت عنها جريدة الزوراء [1] في بغداد: إنه (تأليف لطيف مجموع من حكايات ظريفة وضعها لأجل تعليم الصبيان وتفهيم الفنون وترجمة أجمل وألطف حكاياتها).وسميت (حصة دون قصة)، وطبعت في مطبعة الولاية، في حين أن الطهطاوي سماها (مواقع الأفلاك في وقائع تليماك) ورآها تنشر الأخلاق والفضائل والسجايا

■ من أعماله المهمة وضع المصطلحات القانونية معتمدًا على الشريعة الإسلامية وأحكامها.

■ اهتم رفاعة الطهطاوي بتعريب القضايا التي تتحدث عن الحرية، واهتم بالمساواة التامة بين أبناء الشعب.

العالية.

واهتم السيد رفاعة بتعريب القضايا التي تتحدث عن الحرية، واهتم بالمساواة التامة بين أبناء الشعب، وبأن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف، وعليه العمل بالدستور، وليس هناك فرق بينه وبين أبناء الشعب لأنهم متساوون، الرفيع والوضيع ،ويقدر ابن الشعب على إقامة الدعوى على الملك نفسه (مناهج الألباب).

واهتم بتعريب ما تنشره الصحافة التي سماها (الجورنالات والجازيتات)، واهتم بالحرية الفردية للإنسان وحرية الانتقال والعمل؛ لهذا قدر الزعيم الفرنسي لافاييت لأنه ضد الظلم والاستبداد، وأكد أن الشعب الفرنسي لا يخاف من السلطة لأنها لا تنفي ولا تحبس ولا تصادر الأموال وهو آمن لأن القوانين تضمن له كل هذا، وتصونه من عبث السلطة.

إنها إشارات واضحة ضد الوضع العام في الشرق وعالمه المقيد، فهل يمكن الآن أن يؤلف كاتب في هذا العصر ما ألفه رفاعة؟ وما مصير هذا الكاتب إذا عارض السلطة؟ لا أدري هل كان محمد علي باشا

واسع الصدر فقبل هذه الآراء أم أنه لم يطلع على كتب الطهطاوي في الحرية الفردية ومقاضاة الحاكم المستبد أمام القضاء؟!

ولا شك في أن آراءه عن الظلم والاستبداد والحرية والحكم الفردي أثرت في المفكرين، فقد ألف الكواكبي كتابيه أم القرى وطبائع الاستبداد متأثرًا بدعوة الطهطاوي فقال في أحد كتبه (الاستبداد يسلب الراحة الفكرية فيفني الأجساد فوق ضناها بالشقاء فتمرض).

وبعد ذلك بتقدم الأيام بدأت الجرائد تناقش هذه القضايا، ونشأت فكرة المحافظة والتطور، فتنبه الشرق وأصبحت مصر مثلاً يحتذى في القضايا الفكرية والأدبية. ولا شك أن تعريب الطهطاوي كان المنبع الذي ارتوى منه الفكر الحديث.

حركة التعريب والطهطاوي

كانت رغبة مثقفي مصر شديدة للتعرف على علوم الغرب عندما احتكت بهم الحملة الفرنسية. فقد شاهد علماؤها التجارب التي يقوم بها علماء المجمع العلمي، ومنهم الشيخ حسن العطار. وكان واسع الأفق ذكيًا، فبهرته تجارب الغرب.

لذلك أوصى تلميذه رفاعة الطهطاوي بأن يسجل مشاهداته في فرنسا. فكتب (تلخيص الإبريز) سجل فيه بدقة كل ما رآه وسمعه عن الحياة في فرنسا. ولم يغفل شيئًا مهمًا حتى إننا وجدناه يذكر المجامع التي في باريس وعلماءها، وأبرز ما أثر فيه الحرية الفردية وحرية الانتقال وعدم خوف الشعب من الدولة.

ولا أريد في هذه العجالة ذكر كل جهوده في التعريب والترجمة والتأليف فقد استوفت الكتب التي كتبت عنه ما أريد. ولكن لابد من ذكر أثر هذا الرائد في النهضة الفكرية والأدبية والعلمية في مصر والشرق. فقد كان طوال حياته يعتمد اعتمادًا كبيرًا على التعريب والترجمة، وركز جهوده عليها سواء كانت في مدرسة الألسن أم في قلم الترجمة.

وجدت رفاعة شديد العناية بتقصي المعاني الدقيقة، وغلبت عليه هذه الدقة في أسلوبه، وبخاصة الكتب العلمية. وما كان قادرا على الخروج على السجع الذي كان سمة الحياة الأدبية، وكان سهل العبارة، واضح الأسلوب، دقيقًا في وضع المصطلحات العلمية، وضبط أسماء الأعلام الأدباء الذين أخذ عنهم.

وقد وجدت شرحًا لطريقة الضبط في كتاب (التشريح العام)[٢] يقول فيه:(فيه كثير من الأسماء الأعجمية سواء كانت فرنساوية أو يونانية كأسماء مهرة المشرحين، وبعض حيوانات قد ذكرت للتبيين، وأسماء بعض أمراض ومفاصل، ولعجمتها كان التحريف حال التلفظ بها حاصلا، ولا يمكن النطق بها على حقيقتها إلا بالضبط التام، الذي يستقيم به الكلام، ولا سبيل

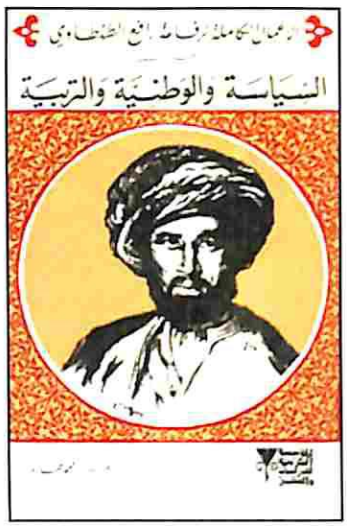

إلى ذلك إلا بضبطها بالعبارة، لأن الضبط بالشكل غير مأمون الخسارة، أمرني حضرة ناظر مدرسة الطب الإنساني العام بايرون، أن أضبطها بالعبارة ليسهل التلفظ بها ويهون، وأن أرتبها حسب حروف المعجم لتكون مراجعتها أسهل وأقوم وأحكم).

إن اعتماد رفاعة على التعريب في نقل علوم الغرب وأفكاره وآدابه كان السبب المباشر في نشر الوعي واليقظة الفكرية، وبقي طوال حياته مهتمًا به سواء في الكتب المعربة، أو في مقالاته في روضة المدارس، أو عندما أشرف على الوقائع المصرية وإدارته قلم الترجمة أو مدرسة الألسن، ولم تشغله الأعمال الإدارية الكثيرة التي عهدت إليه عن التعريب. ومن آثار التعريب في الصحافة أن مهد لصدور الجرائد والمجلات فيما بعد.

كان رفاعة رائدًا في وضع المصطلحات العلمية والتعريب من الفرنسية. فقد انفرد في وضع المصطلحات، فلم نجد فوضى في وضعها إلا عندما كثر المعربون في الأقطار العربية وتنوعت المؤسسات والمجامع، وانفرد بعض المعربين بوضع مصطلحات حسب أهوائهم، فكثر عددها في مادة واحدة أو مخترع جديد، وتناقضت المصطلحات وهذا ما يعانيه مجمع اللغة العربية اليوم في محاولاته الجادة في توحيد المصطلحات العلمية.

لابد من تكريم هذا الرائد في العودة إلى ما ترجم وعرب من الكتب، وإبراز المصطلحات التي وضعها، وإعادة طبع (قاموس القواميس ، وإضافة المصطلحات الحديثة عليه للمقارنة الموضوعية وفي دار الكتب ترقد هذه الكتب على الرفوف، فهي كثيرة ومنها:

١-أحسن الأغراض في تشخيص ومعالجة الأمراض تأليف محمد التونسي.

٢-الأزهار البديعة في علم الطبيعة تأليف مسيو بايرون معلم الكيمياء في مدرسة الطب.

■ لابد من تكريم هذا الرائد في العودة إلى ما ترجم وعرب من الكتب، وإبراز المصطلحات التي وضعها، وإعادة طبع (قاموس القواميس).

وأتمنى جمع مجلة يعسوب الطب الناقصة ودراسة مصطلحاتها التي عربها المختصون بعلوم الطب، والتي كان يشرف عليها محمد علي البقلي وإبراهيم الدسوقي.

وأخيرًا نحن في عصر كثرت فيه المخترعات فأرى ضرورة اتساع رقعة التعريب والمساهمة الكبيرة في وضع المصطلحات وتوحيدها، فقد عرب رفاعة وجماعته ما يقارب ٢٠٠٠ من الكتب، فكيف نقابل الحركة العلمية الواسعة التي جاءتنا بالحاسوب والصواريخ والإنترنت؟. أمنية أرجو أن تتحقق لتطوير الأمة واللغة، ولكن من أين لنا المال والرجال والهمة والصبر؟■

الهوامش:

(١) العدد ٢/٦٣ سنة ١٣٨٧هـ. القصة القصيرة في العراق. ص٢٣. ط١٩٧٤م.

(٢) تشريح الطب لكلارا بولاق. وتراثنا المعاصر . د . يوسف عز الدين. ص١٠٨.